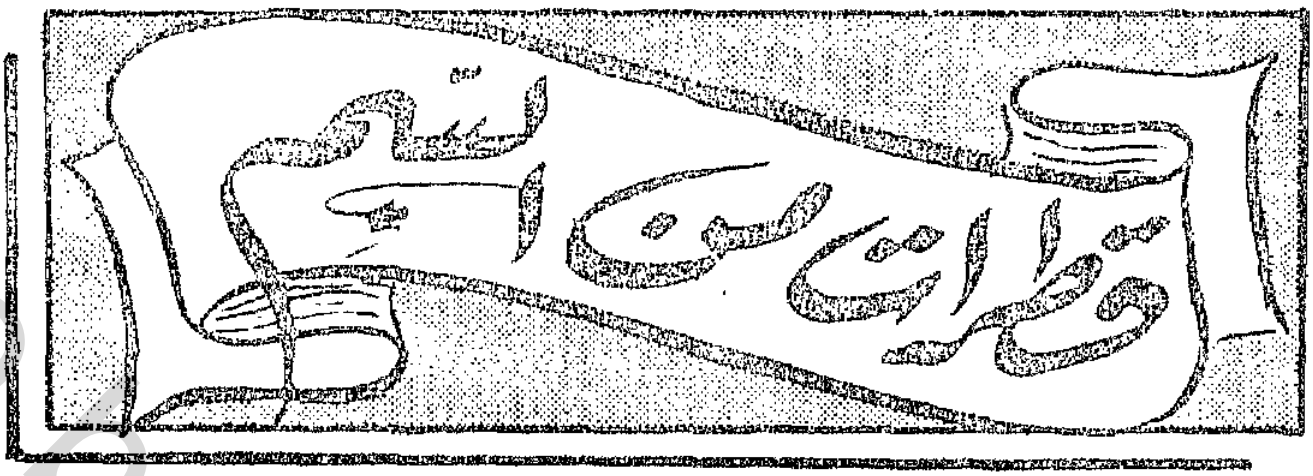

كان كل انسان يقيل فى ظهيرة يوم من ايام يوليو الحارة فى احدى مدن الريف الصغرى او قراه الكبرى ، ما عدا طبيبا من اطباء القرية الثلاثة : طبيب المستشفى المركزى ، وطبيب الصحة ، والدكتور « ع » طبيب القرية الحر الذى هو موضوع هذه القصة ..

كان جالسا على مقعد امام باب مغلق ، يضع ساقا على ساق ، ويشبك اصابع يديه على احدى ساقيه ، وينحنى راسه على صدره انحناء من آده حمل ثقيل خارت له قواه ..

وكانت عبرة مسفوحة قد تركت اثارها على خديه ، ووقفت على شعرة من شعر شاربه الابيض تنتظر عونا من اختها الوليدة لتسقط ..

وكان انين خافت منقطع يصل اليه من وراء الباب بين الحين والحين ، فيمزق نياط قلبه ، ويهزه حتى القرار ..

على انه لم يكن يستقر فى جلسته ، فقد كان يقوم ويقعد ، ويتمشى ، ثم يعود الى الباب فينصت ، ثم يذهب الى صندوق صغير معلق بالحائط ، فيأخذ منه قارورة كتب على وشاحها الاحمر « عشرون نقطة فى قليل من الماء ـ سم ـ لا تتجاوز المقدار » فيتأملها قليلا ، ثم ينحى عنها وجهه الذى توتر لاسى فيه ، ثم يضعها حيث كانت ويحكم انقفل عليها كأنما يحبس جنا

يروعه فى قمقم ، ويعود الى دورته القلقة بين القعود ، والقيام ، والتجوال فى الغرفة بلا هدف مقصود ..

وكانت ساعة دقاقة ملصقة بالجدار تعلن فى هذه اللحظة عن الساعة الثانية بعد الظهر ، خيل له كأن الزمن يقول له فى دقتيها قد بقى من عمرها - عمر ابنته المريضة - ساعتان .. او يومان .. او اسبوعان .. انهما شيئان والسلام ، لا يعود له بعدهما ابنة ، ولا يصبح له اى امل ولا هدف فى الحياة ..

* * *

كان هذا الطبيب اقدم زملائه فى القرية واكبرهم سنا ، وكان يتمتع بشهرة طيبة فيها وفيما حولها من القرى ، لم يكتسبها بالعلم والمعرفة ، وانما اكتسبها بطول المران ، وفطرة الانسانية العليا التى كانت تصبغ كل تصرفاته نحو مرضاه ، وقلبه الطيب وروحه السمحة ، ولفظه المواسى ، وفهمه الصحيح لعقلية الفلاح ..

وكانت هذه الشهرة تقابل من زميليه فى القرية بكثير من الحسد والغيرة فلم يحاولا كتمانهما ، فقد كان طبيب الصحة دائم التجنى عليه ، دائم التربص به ، دائم التتبع لما يقع منه وقد يقع كل طبيب سواه من زلات وهفوات

ولم يكن طبيب المستشفى من هذه الناحية اكرم من زميله ، ولا اعف منه لسانا ، فقد كان هو الاخر لا يفتأ ينعى عليه جهله ويتفكه عليه فى المجالس بانه يداوى مرضاه بالرقى والتمائم ، وعندما كان مريض من مرضاه يطالبه بمستشار كان ينصحه باستقدام طبيب الصحة ، فاذا اباه المريض واصر على استدعاء الدكتور «ع» عبس وزام ومط شفتيه ، ودعاه على كره وما ان يخرج حتى يعمد الى اظهاره امام المريض واهله تصريحا وتلميحا بمظهر الاحمق الجاهل بمعارف العلم الحديث .. على ان الطبيب لم يكن يبالى بهذه الحماقات ، بل يلاقيها باكثر من الحلم ، ورحابة الصدر والابتسام الذى لا يفارق شفتيه ، وكان يعللها اذا سئل

عنهـــا بانها فـــورة من فورات الشباب لا تلبث ان تستقر وانه هو نفسه اتى عليه حين فى شبابه قبل ان يصدمه تيه الطب بحقائقه المرة كان يظن نفسه فيه خليفة لابوقراط ، بل كـان يذهب فى التسامح والغفران الى اكثر من هذا فى بعض الاحيان فيعـرف بان زميليه اكثر منـه تبحرا فى القراءة والاطلاع ، ولكنها ارزاق والارزاق بيد الله ، فكانت هذه النغمة تصـادف هوى فى نفس الفلاح ، فتزيده حبا له ، واكبارا لتواضعه ، وايمانا علـى ايمانه القديم بفضل تجربة المجرب على طب الطبيب !!

* * *

وكانت السـفينة قمينة ان تظل مقلعة بالدكتـور « ع » . تحت هـذه الريح الرخاء ، لولا صخرة عاتية صادفتها فى الطريق

فقد كانت له ابنة ، يتيمـة من الام ، ليس له فى الدنيـا سواها ، وكانت سـعادتها هى الهدف الاول والاخـير لاماله فى الحياة

ومع انهـا كانت فى باكـورة شبابها ، فقـد كان حظها من الجمال بحيث لا يجتذب اليهـا بسهولة انظار الراغبين فى الزواج ، ومن اجل هذا عمل ابوها على ان يعيضها عن ثروتهـا الضئيلة من الفتنة ، ثروة مضاعفة من العلم والمـال ..

وكان له ما اراد .

وفى احدى اجازاتها الصيفية من المعهد العالى الذى كانت تتلقى فيه علومها بالقـاهرة اصيبت بحمى خفيفـة شخصها ابوها انفلونزا ، وظل يعالجها عـلى هذا الاساس بضعة ايام ، ولكنها لم تبرأ ، وظلت الحمى تختلف عليها لا تعلو ولا تهبط واخـذ القلق يتسرب الى قلب الطبيب ، ناهيك بقلب الاب الحنون !

ولجـ الاب الى زميليـه يستشيرهما ، فادركتهما عـلى شيخوخته المهمومة بارقة عطف ، وراحا يبـذلان له ولها اقصى ما يستطيعان من عناية . ولكن هذه البارقة كانت مشوبة باثارة من الاتجار الرخيص باشجان لزميل العجوز !

فقد كان كلاهما لا يألو جهدا فى الايحاء الى اهل القرية جميعا ، مرضى واصحاء ، بانهما يعالجان ابنة زميلهما الحر بعد أن فشل ابوها فى علاجها من مرضها الخطير !

ولم يكن مرضها فى نظرهما خطيرا ، فقد كان كلاهما مؤمنا بانها ايام قلائل ثم تبل من مرضها ولكنهما شاءا أن يضفيا على ما سمياه بينهما وبين ابيها « وعكة من تعفن بالامعاء لا تلبث أن تزول » خطورة تعلى من شأنهما فى المستقبل ، وتذيب الارض الصلبة تحت اقدام الطبيب العجوز ، ويكفيه ما جمع ، وما حاجة مثله فى هذه الشيخوخة الفانية الى المال ؟؟

ولم يكن كل منهما ينسى كلما دخل عليه مريض ان ينادى خادمه فيطلب منه تعقيم المحقن الذى سيحقن به ابنة الدكتور « ع » . او يساله اذا كانت الصيدلية قد ارسلت الدواء الذى وصفه لابنة الدكتور « ع » . او يرسله برسالة الى الدكتور « ع » . يسأله فيها عن حرارة ابنته وكيف هى الان ؟!

وكان الدكتور « ع » . يقابل هذا العطف بالشكران والثناء ، ولم يخطر له على بال قط انه عطف ظنين .

وكانت هذه الدعاية خليقة ان تزلزل الارض تحت قدمى الدكتور « ع » . فالفلاح قد يغتفر للطبيب كل خطأ ، الا ان يعتل هو ، او يعتل احد من ذويه ! ولكن هذه الدعاية تداعت امام ماضيه الطويل ، وسمعته الراسخة الاصول ، وان كانت تركت وراءها حكايات تتداولها الالسنة عن اخطاء ارتكبها الدكتور « ع » . اخطاء كانت تمر فى الماضى على انها اصابات للاقدار ..

على أن الايام تمضى وابنة الدكتور « ع » . ما زالت عليلة وما زالت علتها تهزأ بالعقاقير ، وتزداد سوءا على سوء

واخذ الطبيبان الموظفان يتململان من هذه التبعة . ويزعمان ان اباها لا يسمع لنصحهما وانه يعالجها بطبه العتيق ، وراحا يضربان امثلة زائفة على هذا العصيان فقد طلبا منه أن

يسلق لها القرع فشواه ! وقد ثبت لهما من شهادة الخدم أن دواء وصفاه لها بعد الطعام ، سقاها اياه ذات مرة قبل الطعام ، وانهما بناء على هذه الاسباب ومثلها ينفضان أيديهما من علاجها ويتركانها لرحمة المقادير!

أيس الطبيب من علاج ابنته فى القرية ، فذهب بها الى القاهرة حيث شيوخ الطب واعلامه ، وله فى اكثرهم أصدقاء .

وفحصوا المريضة فحصا دقيقا من كل الوجوه ، وقرروا فى النهاية أن مرضها عضال ، وان ذبالة حياتها أوهى من ان تؤججها سوى معجزة ، ثم واسوا أباها ، ونصحوا له ان يوفر لها الراحة فى أيامها القلائل الباقية ، ووصفوا لها عشرين قطرة من زجاجة عليها وشاح أحمر ، تأخذها فى قليل من الماء ، لاتتعداها ، ذودا لآلام لامبرر لها .

وأشفق الطبيب على ابنته من هول النبأ فكتمه عنها ، حتى لايجمع عليها نكبة الالم وفجيعة اليأس من الشفاء ، وراح يضاحكها فى الطريق ، ويقول لها ان أطباء المدن أسخى على مرضاهم منا نحن أطباء الريف ، فقد أذنوا لها أن تأكل الفاكهة جميعا ، وبعض اللحوم اذا شاءت ، وانها تستطيع منذ اليوم ان تقذف فى وجه الطاهية بطبق القرع المسلوق وأخذ والحزن يعجز فؤاده يحدثها عن الرحلة البهيجة التى أعدها لها يوم نقاهتها فى جبال لبنان .

وعندما عاد الى القرية كتم النبأ عن كل مخلوق حتى عن زميليه ، كى لايتسرب الى سمعها من أى طريق ، وراح يجتر أحزانه وحده ، ويقتات على أشجانه دون حاجة الى زاد .

وآلى على نفسه ليقضين بجوار فراشها ماتبقى لها من العمر قصر أو طال .

وانكمشت حياته التى كانت ممتلئة بالتجوال والنشاط ، والامل ، والامل الى ساعات حزينة يقضيها معها ، يمطرها

بسمات وقلبه يقطر دما ؛ ويملأ مسمعيها بكواذب المنى ونفسه تساقط قنوطا وحسرات

فاذا استسلمت للرقاد ساعة تحت تاثير قطرات السم ، مشى الى الباب يسترق خطاه وجلس من خلفه كالكلب الوفى ، يهوم تهويما كحسو الطائر الفزع . . ثم توقظه أحلامه المزعجة أشد ماكان قلقا ، وأفظع ماكان عذابا ، وأعق ماكان لحياته وكل ما كان يحرص عليه من ذخائر مده الحياة !

وأخذت شيخوخته تزحف بلا رحمة على البقية الباقية من

وفى هدأة من ليلته الثالثة المسهدة صب نصف ما فى زجاجة السم فى كأس الدواء

قواه ، وطفق كيانه يتقوض بسرعة هائلة تحت وطأة السهر والضنا وانقراض آماله كلها بهذا البطء الشنيع . ومع ذلك فقد هان عليه كل شيء ثمنا لعلالة من النوم المريح تنالها ابنته الذاوية وسط هذا البلقع المجدب الا من قتاد اليأس والآلام ..

* * *

على أن مرضاه لم يتركوه . وظلوا يقطعون عليه هذه الوحشة المؤلمة بقبس من النسيان .

وبالرغم من أنه كان يذودهم عن نفسه برفق ويحيلهم قدرما يستطيع على زميليه فقد ظلت عقارب الغيرة تلوث قلبيهما بسمها الزعاف ..

غاظهما ان تذهب كل دعايتهما ضده هباء ..

وغاظهما ان يتلقيا منه المرضى صدقات !

وغاظهما اكثر وأكثر انصرافه عنهما فى علاج ابنته بعد استشارة كبار الاطباء ، وانتفاء التبعة ، وتحطيمه دون قصد لاقوى سلاح كانا يحاربانه به ، وهو الصياح على مسمع من مرضاهما بدواء ابنة « الدكتور ع . » والمحقن الذى تحقن به ابنة الدكتور ع . و «القرع المسلوق » فأخذا يزعمان أنه يقتل ابنته بالجهل والاهمال ، كلما تواترت أنباء الخدم عن سوء حالتها ، زعما ان المريضة منذ تركا رعايتها تسير بخطوات حثيثة الى مثواها الاخير . !

وكانت هذه الاقاويل تصل الى الدكتور ع . فلا يعتب ولا يغضب ولا يثور .. وانما يبتسم ابتسامة كالبكاء ويستغفر لهما الله ..

وطالت هذه التعاسة المزدوجة عليه ، ومرت به الايام كأنها أعوام ، وأخذ فعل السم الذى كان يطامن من آلام المريضة يتضاءل كان جسمها قد تعوده ، وبات أنينها الخافت أعلى وآلم من ان يدفعه عنه التهويم أو النسيان .

وباتت كواذب المنى لاتحرك فى قلب الصبية المحتضرة الا وتر الاشفاق على كذب أبيها المقصود .

قضى الدكتور ع . ثلاث ليال مسهدا على باب ابنته ، راحت فيها تأملاته وهو يمسك بزجاجة السم — وما زال فيها نصفها — تزداد وتطول ..

ولم يعد ينحيها عنه كلما نظر اليها تنحية الخائف المذعور ..

كانت فكرة قد طفت فى خياله وهو يسمع من ساعة الحائط دقتيها المحزنتين . ويتوهم فيهما نذير الزمن القاسى بقرب انقضاء !

فكرة هائلة ترعرعت فى خياله مع السهد ، والانين .. ان يريح ابنته من هذا العذاب !

ماذا لو اعطاها من زجاجة السم اربعين او خمسين قطرة دفعة واحدة ، واجاب بالنيابة عنها دعاء القبر الذى اشتد به الحنين الى نزيله المرموق ..ثم يكن بعد ذلك مايكون ؟

ظلت هذه الفكرة تراوده ،وتحتكم فى ضميره الى حنان الاب والى عقل الطبيب ، ولكن ايمانه بالله كان يذودها عنه ، وينتصر على منطق العقل والحنان

لكن حنان الاب وعقل الطبيب آزرهما فى النهاية ذلك الانين العالى المحزن الموصول ، فتقهقر ايمانه بالله ، وخسر المعركة الاخيرة بعد طول الفوز وتوالى الانتصار

وفى هداه من ليلته الثالثة المسهدة صب نصف مافى زجاجة السم فى كأس الدواء ثم ذهب الى سرير ابنته بخطى وئيدة ، ثبتة ، فزاد على الكأس القطرات لعشرين المعتادة ، ثم قدمها لابنته ، وهى تنظر اليه نظرة عتب على هذه المهزلة التى تمثله على غير رضا لامن الممثل ولا من الشهود ..

ولكنها شربت حتى لاتسىء اليه . !

واخذ الاب الشيخ المحطم يدهدها كما كان يفعل وهى طفلة ، ويحدثها عن لبنان واحراش الصنوبر ، و « صوفر » التى كانت تعشقها ، وتفضلها على كل فمم لبنان

وثقلت اجفانها ، واسترخت عضلات وجهها التى وترها الالم ، ولانت شفتاها حتى لكأنهما عازلان شبح ابتسامة

وانهلت دموع الشيخ فجأة على وجنتيه الذابلتين ، كأنما تتساقط من ميزاب ، ووقع بعضها على جبينها وهو يقبلها القبلة التى كان واثقا انها القبلة الاخيرة ..

وذهب يسترق الخطى نحو الباب كما كان يفعل ، ولكنه بدا له فعاد وادار السرير نحو القبلة ، ثم اغلق عليها الباب ..

ولم يعد يسمع الانين ..

وظلت الساعة وهو جاثم بالباب تقول له فى دقاتها الحزينة : ان المتعب قد استراح !

* * *

ولم ينم الاب قط منذ ليال مانام فى هذه الليلة ، فقد غلبه ضعف الجسد الواهن ، وراحة اليأس المطلق ، فتمدد على الباب وراح فى سبات لاتقطعه رؤى ولا احلام ..

وعندما افاق فى الصباح انتفض من مرقده ، وعادت اليه ذكرى اللحظة الرهيبة فاندفع الى سرير ابنته كالمجنون ..

فلم يجد على وجهها صفرة الموتى

والفى انفاسها تتردد من تحت الغطاء هادئة منتظمة . !

وكانت فى غيبوبة لم تفق منها الا فى صباح اليوم التالى ..

وعندما استيقظت كانت كالخارجة من حمام تركت فيه اكثر ما كان يلوث روحها من أوضار ..

لقد حدثت المعجزة

واستحال السم فى لحظة من اللحظات التى تهزأ فيها الطبيعة بكل معارف البشر ـ استحال الى ترياق . !

واخذت المريضة تنقه دون حاجة الى تكرار التجربة القاسية من جديد

واستعادت المحتضرة عافيتها فى شهر سافرت بعده فى صحبة ابيها الى لبنان

ونال التسامح والقلب النقى مكانهما فى النهاية ، فلم تعد دعاية « القرع المسلوق » تنفع فى صرف مريض واحد عن باب الدكتور ع . الذى انتصرت على يده عقيدة الفلاح فى تجربة المجرب وفضلها على طب الطبيب ! !

في المقدمة دائماً..

تصدر في منتصف كل شهر

obeikandl.com